**المقاصد الشرعية ومستقبل فلسطين**

**ورقة بحثية مقدمة من**

**د. سلمان مرضي السعودي**

**أمين ملتقى دعاة فلسطين – غزة**

**لمناقشتها في المؤتمر الدولي الثاني للتعايش السلمي**

**تحت عنوان**

**تقارب العالم الإسلامي وأفق الحضارة المستقبلية القائمة على مقاصد الشريعة**

**المقام في: جامعة طهران**

**21 ذي القعدة 1444هـ**

**10 يونيو 2023م**

**المقاصد الشرعية ومستقبل فلسطين**

د. سلمان السعودي.

**قال تعالى: { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } (الروم:69)**

الحمد لله رب العالمين، ناصر المجاهدين، ومعز المؤمنين، ومذل الكافرين، والصلاة والسلام علي سيد الأنبياء والمجاهدين محمد صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه أجمعين ... وبعد.

إنّ من أهم القواعد الفقهية، ومن أكثرها شيوعًا والعمل بها، قاعدة "درء المفاسد أولى من جلب المصالح" حيث تمثل منهجا مقاصديًا في فقه الموازنات بين "جلب المصالح ودرء المفاسد" وللمقاصد صلة وطيدة بالمصلحة:

فالمصلحة كالمنفعة وزنًا ومعنًى، وهي ضد المفسدة والمضرة، ويعرب عنها بالخير والشر، وبالنفع والضرر، وبالحسنات والسيئات.

يقول عزالدين بن عبد السلام: المصالح هي اللذات وأسبابها. والمفاسد: هي الآلام وأسبابها أو الأضرار وأسبابها، فتكون المصلحة متمثلة في جلب المنافع وما يوصل إليها، وتكون المفسدة متمثلة في درء الآلام والأضرار وما يوصل إليها.

وبما أنّ فلسطين هي مركز الصراع الكوني بين تمام الحق وتمام الباطل، وحلبة الصراع في القرون الثلاثة الأخيرة تؤكد ذلك، هذا من جانب، وانشغال الأمة العربية والإسلامية في مصالحها الذاتية بعيدًا عن المصلحة العامة المرتبطة بالدين والأمة وعن هذه القضية الأم من جانب آخر.

ففي هذه القضية المركزية لا بدّ من تحديد ما هي مفسدة، وما هي مصلحة، ولا بدّ من الاعتبارات التالية:

1. إنَّ المعتبر في ذلك هو المفسدة العامة والمصلحة العامة، والتي تعود على معظم الأمة بالتأثير.
2. لا بدّ من تقييم المفسدة، إن كانت مفسدة بحتة، أم هي مفسدة في جانب ومصلحة في جانب آخر.
3. لا بدّ من الاعتبار الشرعي في تقييم المفسدة المصلحة.

ونجمل القول في ذلك: بأن في القتال مفسدة في النفس والمال والمقدرات، ولكن في الجهاد في فإنّ في الجهاد ودفع العدو حياة للغالب منها، وحفظًا للضروريات الخمس (الدين، والنفس، والمال، والعرض، والعقل) وحفاظًا لمستقبل الأجيال، ولهذا فرض الله تعالى الجهاد وجعله الفريضة الخامسة فقال تعالى: { انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (سورة التوبة:41) وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } (سورة التوبة:123سبيل الله تعالى والدفاع عن الدين والوطن مصلحة مُغلبة، فإن كان هناك خسارة في بعض الأموال والأنفس والثمرات،) وقال تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم: { وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا } (سورة النساء:84)

وسأتناول في ورقتي البحثية هذه الموسومة ب "المقاصد الشرعية ومستقبل فلسطين" البنود التالية:

**البند الأول: فلسطين والقدس والأقصى آية في كتاب الله تعالى:**

إنّ فلسطين والقدس والأقصى آية في كتاب الله تعالى، فمن أراد التخلي عنها فعليه أولا أن يتجرأ على حذف سورة الإسراء من كتاب الله تعالى، قال تعالى: { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آَيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } (سورة الإسراء:1)

ويستحيل أن تحذف كلمة أو حرف من كتاب الله تعالى، فكيف بآية، وذلك لأنّ الله تعالى تكفل بحفظ كتابه فقال تعالى: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } (سورة الحجر:9) وقال تعالى: {لا يأتيه الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } (سورة فصلت:42)

فجاءت هذه الآية لتدلل قطعًا باللفظ والمعنى على أنّ الأقصى وما حوله آية من كتاب الله تعالى بل هي في "وسط " القرآن، وأنها تصدرت سورة الإسراء، قد شرفها الله فسماها "مسجداً" في وقت لم يكن فيها بناء لمسجد، ولقد شرف الله القدس وسماها " المسجد الأقصى " في حادثة الأسراء، قبل الهجرة إلى المدينة بعام واحد، وحيث لم يكن معروفاً للمسلمين سوى المسجد الحرام، وكأنّ كلمة "الأقصى" والتي معناها "الأبعد"، تشير بأنّ هناك مسجدًا سيكون دون ذلك .. قصي .. وذاك الأقصى، وتحققت النبوءة بعد الإسراء بسنة واحدة، حيث هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبنى فيها مسجده الشريف، ويشهد بهذا حديث أبى سعيد الخدري رضي الله عنه الذي رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تُشَدُّ الرِّحالُ إلَّا إلى ثلاثةِ مساجدٍ: المسجدُ الحرامُ، ومسجدي هذا، والمسجدُ الأقصى" ([[1]](#footnote-1)).

كما أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أكد على أنّ القدس مسجدٌ بقوله صلى الله عليه وسلم : "عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أولا؟ قال: «المسجد الحرام» قال: قلت: ثم أي؟ قال «المسجد الأقصى» قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بعدُ فَصَلِّه، فإنّ الفضل فيه». " ([[2]](#footnote-2)) ولقد حاول الكثيرون من المستشرقين والمُنصِّرين أن يُحرِّفوا في كتاب الله تعالى ونُكسوا على أعقابهم، وفشلوا فشلاً ذريعًا، وتحقق فيهم قول الله تعالى اليقيني: { يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } (سورة الصف:8)

**البند الثاني: فلسطين وقف إسلامي:**

إنّ فلسطين وقف إسلامي لكل المسلمين وليس للفلسطينيين فقط، وعليه لا بدّ من توحيد الجهود لتحريرها من المحتل الغاصب.

إنّ معجزة الإسراء والمعراج جاءت لتؤكد إسلامية الأرض المباركة وأنّ فلسطين هي أرض وقف إسلامي وجزء من عقيدة الأمة الإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، مبينًا أنّ الإسراء الرباني بالنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- بالروح والجسد، وحالة اليقظة من مكة المكرمة إلى بيت المقدس كان بمثابة فتح معنوي لبيت المقدس، وأنّ إمامة الرسول عليه الصلاة والسلام بجميع الأنبياء والمرسلين في المسجد الأقصى المبارك أكدت عالمية الإسلام، وأنه دين للناس كافة.

أصبحت القدس مدينة مقدسة بالنسبة للمسلمين بعد حادثة الإسراء والمعراج وفق المعتقد الإسلامي، وبعد أن فُرضت الصلاة على المسلمين، أصبحوا يتوجهون أثناء إقامتها نحو المدينة، وبعد حوالي 16 شهرًا ونيف، عاد المسلمون ليتوجهوا في صلاتهم نحو مكة بدلاً من القدس، بسبب كثرة تعيير اليهود لمحمد وللمسلمين بسبب استقبالهم لقبلة اليهود، ولأسباب أخرى.

وقد تم فتح فلسطين من قبل المسلمين، ابتداء من 634 للميلاد. في 636 م، وقعت معركة اليرموك بين المسلمين والروم البيزنطيين في وسط بلاد الشام، انتصر فيها المسلمون. وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه والفتوحات الإسلامية أًرسل عمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما لفتح فلسطين عامة ونشر الدعوة الإسلامية فيها، لكنّ القدس عصيت عليهم ولم يتمكنوا من فتحها لمناعة أسوارها، حيث اعتصم أهلها داخل الأسوار، وعندما طال حصار المسلمين لها، طلب رئيس البطاركة والأساقفة، المدعو «صفرونيوس»، طلب منهم أن لا يسلم القدس إلا للخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشخصه، فكان الفتح العمري لبيت المقدس. كتب عمر مع المسيحيين وثيقةً عُرفت باسم «العهدة العمرية» وهي وثيقة منحتهم الحرية الدينية مقابل الجزية، وتعهد بالحفاظ على ممتلكاتهم ومقدساتهم.

**البند الثالث: رحلة الإسراء وجغرافية الرسالة الإسلامية:**

إنّ رحلة الإسراء والمعراج رسمت جغرافية الرسالة الإسلامية، حيث ضمت في خارطتها مكة المكرمة ورمزيتها المسجد الحرام، وفلسطين ورمزيتها المسجد الأقصى، وما بينهما من قرى مباركة، ثم السماوات السبع ورمزيتها سدرة المنتهة.

لم تأتِ رحلة الإسراء والمعراج للترفيه والتسرية عن قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم من الآلام والاضطهاد والمعاناة التي لاقاها من قومه والعرب فقط، بل جاءت هذه الرحلة الربانية لترسم قواعد التمكين لمركزية الخارطة الجغرافية للرسالة المحمدية والتي تشمل على الجزيرة العربية ومركزيتها مكة المكرمة والمدينة المنورة، وفلسطين ومركزيتها القدس والمسجد الأقصى، وما بين الجزيرة وفلسطين من قرى مباركة، ومن ثمَّ السماوات السبع ومركزيتها سدرة المنهى.

ولا تتحقق وحدة الجغرافية لهذه الرسلة إلا بتحقيق الخطوات العملية المتمثلة بالتالي:

1. **وحدة الساحات الإيمانية:**

فإن كان المسجد الحرام قبلة المسلمين الثانية، وقد أمَّ النبي صلى الله عليه وسلم فيه بالمسلمين، فإنَّ المسجد الأقصى هو قبلة المسلمين الأولى، وقد أمَّ النبي صلى الله عليه وسلم فيه بالأنبياء جميعًا، وإن كانت مكة المكرمة والمدينة المنورة فرضت فيها العبادات من زكاة وصيام وحج، فإنّ المسجد الأقصى نزلت فيه عبادة الصلاة التي هي عماد الدين، وركنه المتين.

ولقد دللت مقاصد التشريع لهذه العبادات على وحدة الساحات الإيمانية في ساحة واحدة، بدلالة إمامة النبي صلى الله عليه وسلم بالأنبياء جميعًا على بلاط المسجد الأقصى، حيث إن كل نبي منهم عليهم السلام أرسل لقومه، فوحدتهم صلاة واحدة خلف النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأمر إلاهي بالوحدة الإيمانية، واتباع ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (آل عمران:85)

1. **وحدة الساحات الأرضية:**

وقد جاءت رحلة الأسراء بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى هذا البلد الأمين "المسجد الأقصى" كي تدلل على علم اليقين بأنّ المسجد الأقصى هو عرق الجزيرة النابض، وقلبها الخفاق، وأنه لا حياة للعرب في جزيرتهم إذا لم تكن تُخومها الشمالية محمية، رغم أنه لم يكن هذا البلد في حوزة العرب آنذاك، وقد ورد في الحديث النبوي الشريف "لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى". ([[3]](#footnote-3))

وإنّ من اليقين الذي لا يشوبه شك، أنَّ الله تعالى قادر على أن يعرج بالنبي صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى، ولكنها الإشارة الإلهية لبيان المقاصد للأمة بوحدة الساحات الأرضية ومركزية احتضان الرسالة المحمدية التي ابتدأت في غار حراء ب"اقرأ"، وستنتهي بالحشر ومن ثمَّ البعث من فلسطين، فكيف بالأمة اليوم يفرطون بفلسطين ويقرون بملكيتها لشرذمة غاصبة ليس لهم صلة بأنبياء بني إسرائيل، وكيف ببعض الأنظمة العربية يطالبون ويقرون التعايش مع المنظمة الصهيونية على أرض فلسطين، وكيف بمن يُقرون التقسيم المكاني والزماني للمسجد الأقصى بين المسلمين والمنظمة الصهيونية.

1. **وحدة الساحات القيادية:**

إنّ من مصائب العصر ونكباته صناعة القادة في الغرف الظلماء والليالي الحمراء، واستبدال الغزو العسكري بالغزو الفكري، فلقد جاء الغرب المستعمر بمؤامرة تقسيم الوطن العربي إلى كانتونات تحيط بها أسلاك شائكة وحدود وهمية أقنعوا بها أصحاب البلاد وصنعوا لهم لكل كانتونة راية ونصبوا عليهم زعيمًا يحمل راية التحرير والتحرر، لغوا الهوية القومية، وجعلوا لكل بلد هوية قطرية، وكل ذلك في خيمة "سايكس بيكو" وأقنع الغرب هؤلاء بأن لكل منهم شأنه الداخلي ولا يجوز لأحد أن يتدخل به، كما أنه لا يجوز له أن يتدخل في شؤون الآخرين، وهكذا انقسمت الأمة، وتقسم الوطن إلى أوطان، وضاعت القضية الأم، وانفردت المنظمة الصهيونية بفلسطين واحتلتها وسيطرت على المسجد الأقصى بقوة السلاح، وتخاذلت الأمة تحت شعار شؤون داخلية لا علاقة لنا بها.

فلقد جاءت المقاصد الشرعية، لتدلل على وحدة الأمة في جميع ساحاتها لتتمكن من الحفاظ على الوطن الذي هو الحاضنة الجغرافية للمواطن كما هو الدين الحاضنة الروحية والمعنوية له، قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (سورة آل عمران:103) وقال تعالى محذرًا: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (سورة آل عمران:105).

**البند الرابع: التفريط بالمسجد الأقصى هو خطوة للتفريط بالمسجد الحرام، والمسجد النبوي:**

القدس توأم مكة المكرمة، والأقصى المبارك توأم الكعبة المشرفة وذلك بقرار رباني قرره الله عز وعلا- قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان وذلك حين جعل المسجد الأقصى المبارك قبلة المسلمين الأولى، التي ظل الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام ستة عشر شهراً يستقبلونها في صلاتهم قبل أن يستجيب المولى سبحانه وتعالى لرغبة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، بتحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى الكعبة المشرفة قال تعالى: { قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ }(سورة البقرة:144).

ولقد أثبت التاريخ على مرّ الأزمان أن من يسيطر ويتحكم بالمسجد الأقصى فإنه يتحكم بالعالم أو معظمه، فالصليبيون تحكموا بمعظم العالم بعد أن اتخذوا من القدس مركزًا للإمبراطورية الصليبية، والمسلمون فتحوا البلاد من مشرقها إلى مغربها بعد فتح القدس، وبريطانيا حكمت العالم، وها هي المنظمة الصهيونية تحكم العالم لأنها تحكم وتسيطر على فلسطين والقدس.

فإن كان الله تعالى ربط بين مكة والقدس، وبين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بتبيان الربط بين المساجد الثلاثة، المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى كما جاء في الأحاديث الصحيحة، فكيف لهذه الأمة أن تفرط بالمسجد الأقصى، وتتنازل عن القدس وفلسطين في مقابل أن يبقى الزعماء على عروشهم، فلقد حذر العلماء والأحرار من الأمة من مغبة ذلك، وها هو لقد وقع المحذور، فأصبح يهود الأرض يرتعون في معظم عواصم الدول العربية والإسلامية، وعادوا للجزيرة العربية التي طردوا منها بسبب خيانتهم ونقضهم للعهود والمواثيق، وطبع الكثير من الأنظمة العربية معهم، وأقاموا لهم الكنس والمعابد.

وبهذا لقد خالف زعماء الأمة النصوص ومقاصدها التي تحذر من مستقبل يائس للمنطقة ومركزيتها فلسطين في حال شتاتهم وتفرقهم وإعراضهم عن تشريع الله تعالى.

**البند الخامس: العلاقة بين المقاصد الشرعية والقضية الفلسطينية:**

بما أنّ القضية الفلسطينية هي القضية المركزية للصراع القائم بين المسلمين والاحتلال الصهيوني، والمسجد الأقصى جزء من عقيدة المسلمين كونه القبلة الأولى، والقدس أرض المحشر والمنشر، وكل ذلك ثابت بالنصوص القرآنية والنبوية، وفلسطين آية في كتاب الله تعالى، فكل ذلك يأخذنا إلى التأكيد على أهمية مقصد الدين في دراسة الصراع الإسلامي الصهيوني، وبما أن الدين من أهم الضروريات الخمس، إذا اختل يختل معه باقي الضروريات والحاجيات والتحسينات، والصراع القائم هو صراع على حفظ جميع الضروريات، صراع لحفظ الدين، المتمثل بالمسجد الأقصى والمقدسات، وحفظ النفس من القتل والاعتقال والتشريد والتهجير، وحفظ المال من الاغتصاب للأراضي والمساكن والمقدرات، وحفظ العقل حيث الإهمال الطبي والاعتقال والتعذيب الذي أودى بعقول الكثير، وحفظ النسل من الإعدامات بدم بارد للطفولة.

وبما أنّ الصراع الإسلامي الصهيوني من أبرز معالمه قضية الإنسان، والمكان، والزمان، وهذه المعالم بمجملها تشير إلى معيار الدين في هذا الصراع، ومعيار المصالح والمفاسد في أي مقصد من المقاصد الشرعية هو معيار أصلي فيها.

فكلما ازداد ارتباط المقصد بالضروري، تزداد أهميته، وكلما بعدت عن خدمة الضروري صار المقصد في موضع الظن والضعف.

ويعدُّ الوعي الديني بالقضية الفلسطينية مقصدًا أصليًا حيث المتابع للقضية الفلسطينية والواقف على أهمية فلسطين إسلاميًا وعربيًا وتاريخيًا، يقف على أهمية الدين في تحريك مسار الصراع ما بين المسلمين والصهيونية، ويستحضر مفهوم الدعوة الإسلامية في هذا الصراع، والجهاد والمقاومة مقصد أصلي في الحفظ على ضرورة الدين وباقي الضروريات الخمس، وبهذا يتضح لنا أهمية المقاصد الشرعية في مستقبل القضية الفلسطينية حيث النصر الذي لا يتأتى إلا بنصر الله تعالى وذلك بنصرة دين الله، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (سورة محمد:7) وقال تعالى: { وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (سورة الأنفال:10) وهذا الذي يؤدي بدوره لتحرير المسجد الأقصى والمقدسات وفلسطين وتحرير شعب فلسطين وعودتهم من الشتات والتشريد، واسترجاع حقوقهم ومقدراتهم وقدرات الوقف الإسلامي من براثن الاحتلال الصهيوني لتنعم به أمة الإسلام.

وعليه لا بدّ من إعادة دراسة المقاصد الشرعية دراسة مستفيضة ومدى علاقتها بالقضايا الإسلامية العامة، وقضية فلسطين خاصة.

**البند السادس: عمق الصراع بين الأمة الإسلامية والاحتلال الصهيوني ومستقبل فلسطين:**

مستقبل القضية الفلسطينية يرتكز على الفهم الصحيح لعمق الصراع وأبعاده القائم بين الاحتلال وشعب فلسطين خاصة، والأمة العربية والإسلامية عامة، وللحديث تحت هذا العنوان فلا بدّ من التأصيل في نقطتين مهمتين.

**الأولى: من أسبق وجودًا في فلسطين؟ العرب أم اليهود؟**

إنّ التاريخ على مر الأزمان وكل ما كتب على صفحاته إلى يومنا هذا ليثبت بأنّ ليس لليهود من ذكرى أو ذكر يسبق وجود العرب وتاريخهم في فلسطين، فإنّ الكنعانيين العرب هم الذين سكنوا فلسطين بعد هجرتهم من الجزيرة العربية وعمروها وأقاموا فيها أعظم الحضارات حتى عرفت فلسطين بأرض كنعان عام 2500 ق-م وقد استمر الكنعانيون العرب سادة البلاد "ألفان وخمسمائة سنة" ([[4]](#footnote-4))

فإنّ كل ما تدعيه هذه الشرذمة الحاقدة التي تسمى إسرائيل بأنّ العرب جاءوا إلى فلسطين مع الفتح الإسلامي زوراً وبهتاناً فلقد أكدت الحقائق التاريخية وأجمع معظم المؤرخين الثقات، كما أوضحت أحوال توراتهم زور ما يدعون، فإنّ سكان فلسطين القدماء ينحدرون من القبائل الكنعانية التي خرجت من الجزيرة العربية واستقرت في فلسطين منذ فجر التاريخ حوالى {4-3} آلاف سنة قبل الميلاد، وكانت تسمى أرض كنعان، وسميت باسمها الحالي منذ القرن الثاني الميلادي نسبة إلى قبيلة فيليستيا التي غزت الساحل قادمة من جزيرة كريت واستوطنوا الساحل وأسست لها مدن محصنة مثل { غزة / عسقلان/ عاقر} ولقد اندمجت هذه القبيلة وتأثرت تأثراً كبيراً بعادات وتقاليد الكنعانيين السامية. ([[5]](#footnote-5))

وتقول الدكتورة – فرنسيس إملي – عضو اللجنة الملكية البريطانية في بحثها الظاهرة استقرار الجنس العربي في فلسطين أو القدس تقول:- " إنّ العرب لا اليهود هم أصحاب تلك الصلة الثابتة المستمرة غير المنقطعة"، أما براينت المؤرخ الأمريكي المتعصب للإسرائيليين يقول: "كان العبرو {يعني العبرانيين} غرباء عن كل بلاد عاشوا فيها وكان أهل تلك البلاد يعني فلسطين يسمونهم الغرباء"، والمؤرخ الاسكتلندي الشهير جيمي فريزو يقول:"إنّ الناطقين بالعربية من فلاحي فلسطين هم من ذريات القبائل التي استوطنتها قبل الغزوة الإسرائيلية لها في عهد داود، وإنهم ما زالوا متصلين بالأرض لم يُنتقلوا عنها ولم يقتلعوا منها وإن طلعت عليهم موجات من الفتوح فإنهم ثبتوا وأقاموا"، وينقل لنا المؤرخ ويلز في كتابه (معالم الإنسانية)، "أن أرض فلسطين هي أرض وبلاد الكنعانيين والفلسطينيين" ([[6]](#footnote-6))

أما المؤرخ الانجليزي المعاصر المشهور (أرنولد تويني) أثبت بالوثائق التاريخية الصحيحة أنّ فلسطين أرض العرب فيقول في بعض كتاباته: "قبل أن يبدأ هرتزل حركته الصهيونية كان قد انقضى على وجود العرب في فلسطين فترة تزيد على سبعة عشر قرناً ونصف على الأقل". ([[7]](#footnote-7))

يقول اللورد موين الوزير المفوّض البريطاني: إنّ اليهود الحاليين لم يكونوا أحفاد بني إسرائيل القدماء، وليس لهم شرعاً أن يستردّوا الأرض المقدسة أرض فلسطين . صرّح اللورد موين بهذا القول أمام مجلس اللوردات البريطاني في6 يونيه سنة 1944م، وفي 9 نوفمبر من نفس السنة تم قتله على يد اثنين من عصابة شتيرن اليهودية عندما كان في زيارة للقاهرة.([[8]](#footnote-8))

لقد اعترف أكبر زعيمين في الحركة الصهيونية بأن ليس لهم حق في فلسطين وأنها حين قدموا إليها لم تكن خاوية صحراء فيقول هرتزل الذي يعتبر المؤسس للحركة الصهيونية: "نحن لا تربطنا بهذه التربة أية حقوق ملكية صحيحة لقد مرت أجيال عديدة منذ كانت هذه الأرض يهودية"، أما بن غوريون فيقول :"لسنا عميانا – إننا على علم أكيد بأن فلسطين ليست بلداً خاوياً بل إننا نعرف أنّ ملايين من العرب يسكنون على ضفتي نهر الأردن الشرقية والغربية كما وأنّ هناك ملايين من العرب قطنوا فلسطين" ([[9]](#footnote-9))

**الثانية: نشأة دولة الاحتلال في فلسطين:**

لقد تحدثت توراة اليهود عن عبورهم نهر الأردن واستقرارهم جنوبي القدس بأرض كنعان ويتضح لنا من ذلك بأن أول من عبر ذلك النهر هو نبي الله إبراهيم عليه السلام مع مجموعة من قومه وكانوا أقلة، ورحب بهم أهل البلاد (الكنعانيون) واشترى حفيده إسرائيل مزرعة فتملكها كما يتملك أي فلاح لاجئ غريب، وكُوَّنَ ما يُشبه جالية صغيرة في ظل الكنعانيين العرب، وأما نبي الله موسى عليه السلام عندما هرب من سلطان فرعون وتاه ومن معه أربعين عاماً في صحراء سيناء (1290 ق.م) حسبوا ألف حساب لعرب كنعان ورفضوا أن يدخلوا الأرض المقدسة ( فلسطين ) وبقوا بعيداً يحذرون دخولها، قال تعالى: { يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (21) قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ } (المائدة:21،22)، أما خليفته يوشع بن نون صمم على دخول فلسطين (1186 ق.م) فقاد البدو الرعاة الأجلاف من اليهود الذين توالدوا في الصحراء أثناء التيه واحتل بهم مدينة أريحا العربية الكنعانية فهدمها وأجرى السيف في سكانها وأسال أنهاراً من الدماء وأهلك ما فيها تماماً كما فعل اللاحقون من اليهود في أصحاب القرى والمدن الفلسطينية مثل قرية دير ياسين وحيفا وعكا وغيرها بعد أسلافهم بثلاثة آلاف عام ومن هنا بدأت فكرة التجمع اليهودي التي هي مبنية على الدماء وهياكل العظام([[10]](#footnote-10)) والتي تحولت من تجمع يهودي إلى تجمع صهيوني يجمع بين مستعمري العالم مهما اختلفت دياناتهم تحت اسم الجنسية الصهيونية.

وكانت إقامة هرتزل في فرنسا قد جعلته يهتم بالمسألة اليهودية وخاصة أنّ باريس كانت في ذلك الوقت مسرحاً لقضية (الكابتن دريفوس) وهو ضابط يهودي فرنسي اتهم بالخيانة وحكم عليه بالسجن والتجريد من جميع ألقابه العسكرية وأهين علناً وكان الحاضرون يهتفون "الموت لليهود" وكان هرتزل من الحاضرين كمراسل صحفي لجريدته.

ومن الزعماء الصهاينة الذين أخذوا على عاتقهم تكوين وإنشاء الحركة الصهيونية (وايزمان) وهو من مواليد روسيا، فلقد ولد في بلدة موتول 1874م وبدأ يمارس النشاط السياسي في فترة مبكرة من حياته ثم هاجر إلى انجلترا عام 1904م وتولى تدريس الكيمياء في جامعة مانشستر حيث حقق إنجازات علمية ساعدت على نجاحه في هذا الحقل، وكان وايزمان من الصهاينة العمليين الذين أسهموا في إسقاط مشروع أوغندا أثر وفاة هرتزل وكانت الأعوام العشرة التالية أكثر سني حياته إنتاجاً وخدمة للحركة الصهيونية، ففي عام 1909م اجتمع مع آرثر جيمس بالفور وشرح له سبب معارضته لمشروع أوغندا (وهذا المشروع هو قيام دولة لليهود في أوغندا) ولقد سعى لكسب جماعة من ذوي النفوذ في بريطانيا والذين باستطاعتهم دعم المطالب الصهيونية في أوساط الحكومة البريطانية ومن أبرز أولئك هاربرت صموئيل واللورد روتشيلد، والمحامي نورمان نبتوبش، والمايجور أورمس غور، ورئيسا تحرير جريدتي التايمز والمانشستر جارديان.([[11]](#footnote-11))

لقد أصبح ثابتً أنّ الحركة الصهيونية لم تكن في أساسها كفكرة وكممارسة حركة يهودية بل هي في الأساس فكرة أوروبية استعمارية بدأت بشكل عملي منذ أوائل القرن التاسع عشر ولذلك فإنّ المؤرخين اليهود يعتبرون وعد بالفور لم يبدأ عام 1917م وإنما بدأ في عهد (بالمرستون) البريطاني في عام 1837م ويلاحظ أن الأغلبية الساحقة من يهود العالم كانت تعارض الحركة الصهيونية وإقامة دولة إسرائيل.([[12]](#footnote-12))

إنّ الوضع الحالي الذي نعايشه لدليل قوي على أن الحركة الصهيونية هي في الأساس فكرة أوروبية استعمارية حيث إن ما تسمى إسرائيل الآن ما هي إلا عبارة عن قاعدة عسكرية مثالية في فعاليتها وفي رخص تكاليفها بالنسبة للغرب سواء للسيطرة على الشرق الأوسط أو لتأمين احتياجات المواجهة العسكرية بين المعسكر الغربي والاشتراكي في حالة نشوب حرب عالمية إن حدث ذلك يوماً ما، ولم يكن يوماً هدف الكتلة الشرقية أو الغربية هو المحافظة على اليهود لأنهم يهود.

أما من أهم الأهداف التي هي سبب تمسك المنظمة الصهيونية بفلسطين هو ما أعلن عنه (ناحوم جولدمان) رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ورئيس المنظمة الصهيونية العالمية في تصريح له نشر في مونتريال كندا عام 1947م قائلاً فيه: " لقد كان ممكناً لليهود أن يحصلوا على أوغندا أو مدغشقر أو غيرهما من الأقطار لينشئوا فيها وطناً يهودياً، ولكن اليهود لا يريدون على الإطلاق سوى فلسطين وليس ذلك لاعتبارات دينية أو بسبب إشارة التوراة إلى فلسطين ولا لأن مياه البحر الميت تستطيع أن تعطي عن طريق التبخر ما قيمته (خمسة آلاف مليار دولار) من المعادن والأملاح المعدنية ، وليس كما يقول المستر دالاس بأن تربة فلسطين الجوفية تحتوي على كميات من البترول تبلغ عشرين ضعف كميات احتياطي البترول في الأمريكتين ولكن لأنّ فلسطين هي ملتقى الطرق بين أوروبا وآسيا وأفريقيا، ولأنها هي المركز الحقيقي للقوة السياسية العالمية، والمركز العسكري الاستراتيجي للسيطرة على العالم..." ([[13]](#footnote-13))

هذه هي وجهة نظر المنظمة الصهيونية في تمسكهم بفلسطين ولقد التقت انجلترا مع زعماء الحركة الصهيونية وعلى رأسهم دكتور (حاييم وايزمان) وخططت معه لقيام قاعدة استعمارية صهيونية على أرض فلسطين وهو التخطيط الذي انتهى بوعد بالفور في 2 نوفمبر 1917م وقد أعلن في صورة خطاب من وزير الخارجية الانجليزي "آرثر جيمس بالفور" إلى المليونير اليهودي الصهيوني "لورد روتشيلد" يقول فيه :" إنّ حكومة جلالة الملك تنظر بارتياح إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي وستبذل كل ما تستطيع لتسهيل تحقيق هذا الغرض على أن يكون مفهوماً جلياً أنه لن يعمل شيء يضر بالحقوق المدنية أو الدينية للجماعات غير اليهودية المقيمة (الآن) بفلسطين أو بالحقوق السياسية التي يتمتع بها اليهود في أية دولة أخرى.([[14]](#footnote-14)).

ومن هذا التأصيل يتضح لنا جليًا سبب اهتمام العالم الأوروبي والغربي للوقوف بصلابة لدعم دولة الاحتلال الصهيوني ماديا، وعسكريا، ومعنويا، ولوجستيا، ويضربون بعرض الحائط كل القوانين والقرارات الصادرة عن الأمم المتحدة ومجلس الأمن ومحكمة العدل الدولية الداعمة للشعب الفلسطيني، أو التي تمس بكيان الاحتلال الصهيوني، فالعمق للصراع هو عمق سياسي استعماري صليبي، اتخذ من المنظمة الصهيونية جسرا، ولديمومة وضمان بقاء هذه الشرذمة على أرض فلسطين لتحقيق الاستعمار الصليبي، غلفوها بالطابع الديني التلمودي الذي حول الصراع مع مرور الزمن من صراع سياسي باحث عن وطن قومي لليهود المضطهدين والمشتتين في دول العالم إلى صراع ديني تلمودي لإقامة الدولة اليهودية وعاصمتها القدس، ومركز قدسيتها الهيكل المزعوم.

ونخلص من هذا إلى أهمية مقاصد التشريع في مستقبل الأمة الإسلامية عامة والقضية الفلسطينية خاصة، فكما توحد العالم الأوربي والغربي في خندق واحد ضد الأمة الإسلامية وتكالبوا عليها، فعلى هذه الأمة أن تعيد قراءتها للنصوص التشريعية والوقوف على مقاصدها من أجل عودة المقدسات والأوطان إلى الحاضنة الإسلامية، والحفاظ على المسلمين ومقدراتهم وطرد الغزاة، وتتضح لنا جليا مقاصد التشريع في الحفاظ على مستقبل الأمة الإسلامية ومقدساتها من خلال النصوص الواضحة والآمرة بذلك، والتي تحث على الاعتصام بالله والوحدة قال الله تعالى: { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } ( سورة آل عمران:103) كما حذر تعالى من التفرق فقال تعالى: { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ } (سورة آل عمران:105) وحذر كذلك من الصراع والاقتتال الداخلي من أجل الدنيا فقال تعالى: { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } (سورة الأنفال:46) كما أوصى الأمة بالإعداد وبناء الحضارة عسكريا، واقتصاديا، ومجتمعيا، فقال تعالى: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } (60).

كما حذر النبي صلى الله عليه وسلم الأمة من ضياع مستقبلها وتكالب الأمم عليها فتمزقها شر ممزق بمخالب غدرها وحقدها، فعن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **يُوشِكُ أن تَدَاعَى عليكم الأممُ من كلِّ أُفُقٍ ، كما تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِها ، قيل : يا رسولَ اللهِ ! فمِن قِلَّةٍ يَوْمَئِذٍ ؟ قال لا ، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيْلِ ، يُجْعَلُ الْوَهَنُ في قلوبِكم ، ويُنْزَعُ الرُّعْبُ من قلوبِ عَدُوِّكم ؛ لِحُبِّكُمُ الدنيا وكَرَاهِيَتِكُم الموتَ** ([[15]](#footnote-15))

**هذا والله أعلى وأعلم**

1. - صحيح البخاري. [↑](#footnote-ref-1)
2. - صحيح البخاري، صحيح مسلم . [↑](#footnote-ref-2)
3. - سبق تخريجه. [↑](#footnote-ref-3)
4. - جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن – صالح مسعود أبو يصير، ص 19. [↑](#footnote-ref-4)
5. - الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية / إسماعيل أحمد ياغي / ص5. [↑](#footnote-ref-5)
6. - الإسلام وفلسطين – رفيق شاكر النتشة، الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية / إسماعيل أحمد ياغي . [↑](#footnote-ref-6)
7. - الإسلام وفلسطين – رفيق شاكر النتشة – الرياض – مطبعة المدينة – 1980- ص 21-23 [↑](#footnote-ref-7)
8. - فلسطين أرض الرسالات الإلهية – رجاء الجداوي – ترجمة وتعليق وتقديم الدكتور / عبد الصبور شاهين – مكتبة دار التراث. [↑](#footnote-ref-8)
9. - الإسلام وفلسطين – رفيق شاكر النتشة، ص 24، 25. [↑](#footnote-ref-9)
10. - جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن ص20 [↑](#footnote-ref-10)
11. - الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية – ص43-52 [↑](#footnote-ref-11)
12. - السلام في الشرق الأوسط وجهة نظر فلسطينية – خالد الحسن – سلسلة دراسات صامد (22) أوراق سياسية(1) الطبعة الثانية دار الكرمل صامد – عمان 1986م [↑](#footnote-ref-12)
13. - الاستعمار وفلسطين ص403 [↑](#footnote-ref-13)
14. - المرجع السابق ص402 [↑](#footnote-ref-14)
15. - صحيح الجامع: 8183 [↑](#footnote-ref-15)